حياتنا هي في الله

مِن النّاس مَن يتبجّح بقوله "أنا سيّد حياتي. ولي أن أعمل بها ما أشاء." وكثيرًا ما يوبّخ النّاس الانسان الخجول بقولهم: "عشْ حياتك! ماذا تنتظر؟" وهم بذلك يقصدون أنّ عليه أن يسعى لبلوغ الأهداف المنشودة في هذا العصر: جمع المال لضمان المستقبل، الاستقلال الذّاتيّ، السّياحة، إلى غير ذلك من المُتَع الكثيرة التي تُشترى بالمال. وبالإيجاز: بحبوحة الحياة هي في نظرهم الهدف الأسمى. وقد جاء في المزمور 90: 9 (التّرجمة السبعينيّة) "أيّام سنينا واهنة كخيط العنكبوت." حتّى أطول الأعمار يمكن أن يُقصَف برمشة بصر. الأشجار تعمّر أكثر منّا. الببغاوات كذلك. "حياتنا ليست إلاّ نُتَفًا" على حدّ قول اللاهوتيّ أوليفييه كليمان. ومهما بلغنا من جهد لانتهاز الحياة فنصيبنا الفشل.

يقول غريغوريوس النّيصيّ:
"حياتنا ميتة في عالم مُشَرّب بالموت، محور كلّ شيء فيه هو العدَم." (جذور التصوّف المسيحيّ ص 15، طبعة 1955).

والواقع أنّ نصيبنا من الحياة ليس سوى مشاركة موقّتة في حياة الله، الكائن الوحيد الموجود حقًّا، لأنّه لا يموت، كما أنّه مصدر الحياة بكافّة أنواعها.

عندما التقى موسى اللهَ في حدَث العلّيقة الملتهبة العجيب، سأل اللهَ عن اسمه/ فأجاب: "أنا الكائن" (خروج 3: 14) وبالعبريّة "يَهْوَه" وباليونانيّة "ὁ ὤν". وهو يعبّر عن الطّابع الفريد الذي يتّسم به الله: لم يتلقَّ الحياة من أحد، ولا نهاية لحياته، إنّه الوحيد الكائن مدى الدّهور. لكنّ هذا الكائن، الوحيد الذي ينعم بمُطلَق الوجود، تكرّم وشاركنا في كيانه عندما أسرف في خلق هذا الكون. فكلّ ما في الكون، من أضخم المجرّات إلى أدقّ الأجسام، إنّما هو موجود بوجوده. وهذه الكائنات لم ترَ الوجود بمحض الصُّدَف النّاجمة عن قوى عمياء، بل بإرادة شخص يفيض منه الوجود. لقد خلق الكونَ ليُمكّن سواه من الوجود. "إنّه خلق كلَّ شيء لكي يكون." (الحكمة 1: 14)

إنّ هذا الفيض من الوجود، الذي نسمّيه الخلق، هو أوّل دليل على أنّ الذي قال "أنا الكائن" هو أيضًا مُحبّ. والواقع أن النّاس في شتّى الحَضارات والعصور، إنّما وجدوا الله في خلقه. ومع أنّهم كثيرًا ما خلطوا بين الله وأعظم ما في الطّبيعة من قوى كالنّجوم، إلاّ أنهم في نهاية المطاف وجدوا في الخلق شخصًا أو شيئًا ما ، خارج أنفسهم. ويقول القديس بولس في هذا الشأن: "إنّ صفات الله غيرَ المنظورة، ولا سيّما قدرته الأزليّة وألوهته، تُبصَر منذ خلق العالم، مُدرَكةً بمبروءاته." (رومة 1: 20)

وعلاوة على ما نراه في الخلق من ألوهة الخالق وقدرته العجيبة، فإنّا نُبصر أيضًا حبّه في ما أبرأ من مخلوقات لا حصر لها، وأشركها في كيانه.

وفي هذا الصّدد يقول القدّيس مكسيموس المعترف:
"عندما أبرأَ الله – الذي هو الملِء المُطلَق – المخلوقات، لم يفعل ذلك ليسدّ أية حاجة شخصيّة، بل لتتمكّن خلائقه من أن تسعد لكونها مخلوقة على صورته، عِلمًا أن هذا الفرح الذي تستمدّه المخلوقات من كنز وجوده الذي لا ينفد، هو مصدر فرح له." (قرون المحبّة، القسم الثالث، 46).

الكائن الذي هو حقًّا محبّة

وفي العهد الجديد نجد الله الذي قال "أنا الكائن"، على نحو لا نتوقّعه، إذْ نقرأ: "الله لم يرَه أحد قطّ. العهد الجديد نجد الله الذي قال "أنا الكائن"، على نحو لا نتوقّعه، إذْ نقرأ: "الله لم يرَه أحد قطّ. الابن الوحيد الكائن (ὁ ὤν) في حضن الآب هو أخبر عنه." (يوحنّا 1: 18).

فالشّخص الذي كشف عن ذاته لموسى وإيليّا وسائر الأنبياء، هو في الواقع كلمة الله، الذي سوف يتأنّس، عندما يبلغ الزّمان مِلئَه، متّخذًا طبيعتنا البشريّة بشخص يسوع النّاصريّ.

فتبارك المسيح إلهنا الحقيقيّ، الكائن منذ الأزل، الآن وكل أوان وإلى دهر الدّاهرين. (رتبة الحلّ الكبير).

ويروي لنا القدّيس هيلاري الذي عاش في بواتييه (فرنسا – القرن الرّابع) كيف انقاد إلى الإيمان عندما التقى كلمةَ الله في الإنجيل: "طالعت تعليم الإنجيل والرّسل فتجاوز فكري حدوده، وأصبحتُ أعلم عن الله أكثر مما كنت أتوقّع. وفهمت أنّ خالقي هو إله مولود من إله. وتعلّمت أنّ الكلمة هو الله وأنه كان مع الآب منذ البدء. ورأيت نور العالم. وفهمت أن الكلمة صار جسدًا وسكن فيما بيننا...

والذين قبلوه صاروا أبناء الله إذْ وُلدوا مجدَّدًا، لا بالجسد، بل بالإيمان... وهذه النعمة يهبها الله لكلّ إنسان. ونستطيع أن ننالها بحرّيتنا، لأنّنا أُعطيناها لهذا الغرَض. لكنّ النعمة المعطاة لكلّ انسان ليصير ابن الله لن تكون فعّالة إذا رافقها إيمان ضعيف متردّد، ومن هنا تنشأ المصاعب ويخبو الرّجاء و يتقهقر الإيمان. وقد صار الكلمة جسدًا لينتشل الانسان من عثرته ويرفعه إلى مستواه. لقد تأنّس الكلمة دون أن يفقد ألوهته. وكم كان فرحي عظيمًا عندما كُشِف لي

هذا السرّ، فأخذت أتقرّب إلى الله الذي دعاني إلى أن أُولَد جديدًا بالإيمان. فتلقّيت هذا الميلاد الثّاني من فضل الله الذي طمأنني إلى أنّي لن أعاد إلى العدم." (في الثّالوث 1)

إنّ المسيحيّين الذين اختبروا المسيح ومحبته للبشر وحلول الرّوح القدُس، تعلّموا أن يبصروا الله كمحبّة في سرّ الثّالوث. فالله واحد حقًّا في كيانه، ومحبّة في العلاقة القائمة بين الآب والابن والرّوح القدس. والله محبّة أوّلا في الصِّلة بين الآب والابن. وهو محبّة في كشفه عن ذاته في الخليقة وفي تأنّس كلمته. وعندنا أنّه أثبت محبته على نحو آخر، فهو لم يسكن بيننا فحسب، بل أتاح لنا التّواصل معه. وقد عبّر سفر التكوين عن هذه العلاقة بقوله مجازًا إنّ الله كان يتمشّى في الجنّة. وهذا قد يُجيز لنا القول إننا مدعوّون إلى أن "نلهو في الباحة الخلفيّة من المقرّ الإلهيّ."

وفي تقليدنا البيزنطيّ الشرقيّ يظهر ذلك في إيقونة الملائكة الثّلاثة التي رسمها القدّيس أندري روبليف: ثلاثة ملائكة يتحاورون وهم جالسون إلى أطراف مائدة. لكنّ للمائدة طرفًا رابعًا فارغًا يجذبنا إليه لندنو ونختبر سرّ الثّالوث من الدّاخل، لا من زاوية النّاظر فحسب.

ذلك هو مِلء الحياة الذي يدعونا الله إلى التمتّع به. وممّا يقوله القدّيس إيريناوس: "الحياة هي التواصل مع الله، والانفصال عن الله هو الموت."

(دحض البِدَع، الجزء 5، الفصل 27: 1)

أن نحيا حقًّا يعني أن نحاول التّواصل مع الله الذي يفوق طاقتنا إطلاقًا، ومع ذلك فهو يحبّنا إلى حدّ أنّه يكشف لنا عن ذاته، ويدعونا إلى المشاركة في كيانه والامتلاء من حياته.

حياتنا هي في الله

مكتب الخدمات التربوية
لأبرشيّة نيوتن الملكيّة
http://mekite.org/

حقوق الطبع محفوظة لكتابة الأيقونات
دير القديسة إيليزابات - دوقة روسيا الكبرى
http://www.conventofsaintelizabeth.org/